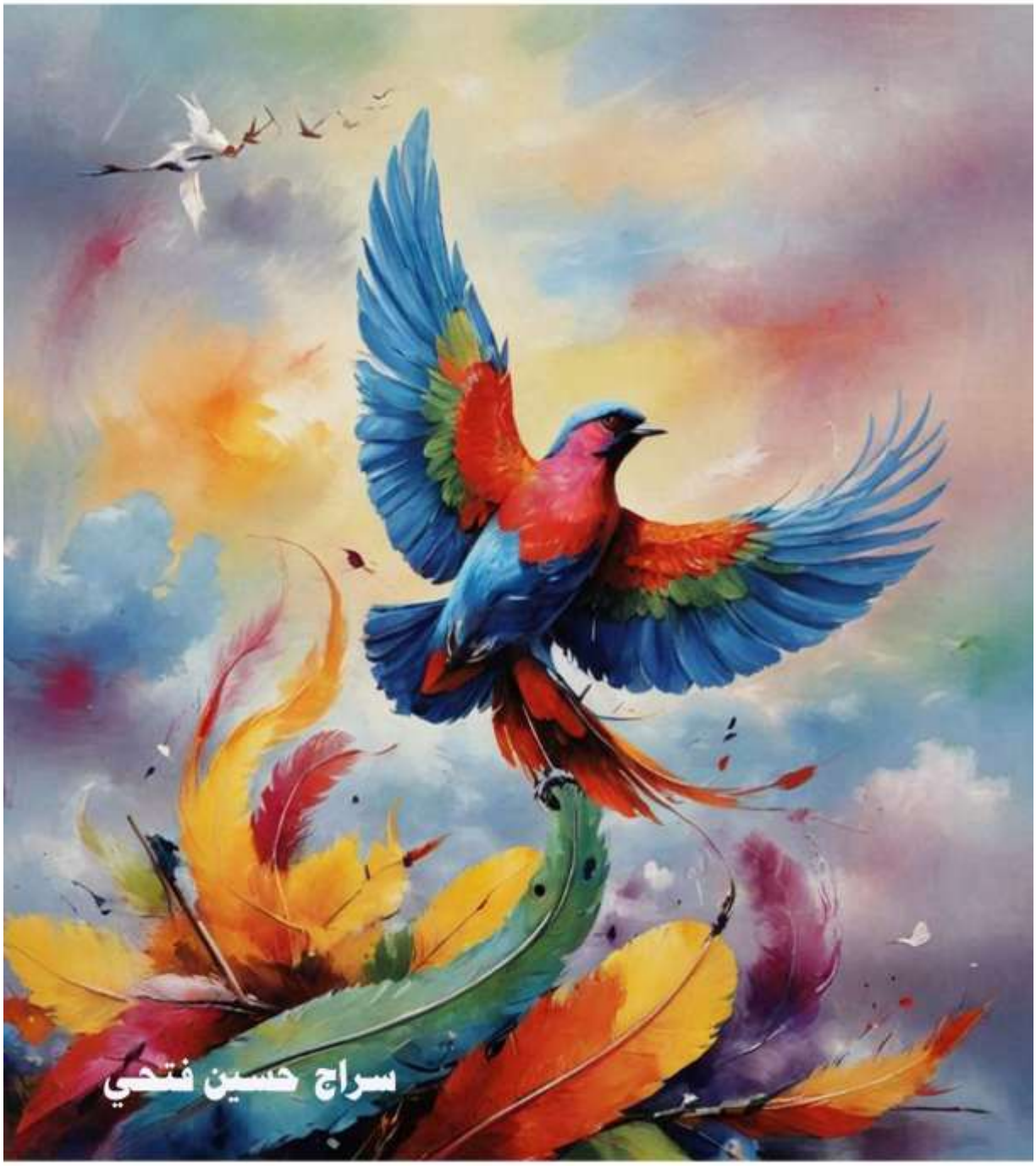


عودة العصفورة

سراج حسين فتحي

عودة العصفورة



جدول المحتويات

وقفة ٤
الدوامة ٦
تساؤل ٦
نسمات الفجر ٧
الصديق ٨
تساؤل صعب ٩
القلب الحياة ١١
الأمل ١٢
عصافير ١٣
ذات الرداء الازرق: ١٥
مفاجأة ١٧
تحية الصباح ٢٠
أذان استانبول ٢٥
خيوط الذكريات ٣٩
خبر ٤٢
في قلب الدوامة ٤٤
خطوة ٤٦
معرفة قديمة ٤٨
غليان ٥٠

علامات استفهام ٥٢
الرحيل ٥٣
دوامة الذكريات ٥٣
الوداع ٥٨



وقفة



جلس رفيق على سفح جبل مطل على البحر يتلفت يمنة ويسارا ثم يرفع رأسه الى السماء يحدق فيها كمن ينتظر شيئا يهبط عليه!

ثم يجلس القرفصاء، يرخي رأسه الى الأرض ينكسها وفي يده اليمنى عصا صغيرة ينكت بها على الرمل، وأحيانا يخط خطوطا متقطعة ويرسم أشكالا غير منتظمة ويمسحها بيده، ويرفع رأسه ثانية الى السماء فيرى قزعة سحاب رمادية داكنة كأنه يتخيل فيها عصفورته التي طارت بعيدا ولم تعد!

مرت سنوات طوال منذ آخر مرة رآها وهي تقف ترمقه بعينها البراقتين من خلف النظارة كأنها تقول له خذني اختطفني خبئني بين جنبيك !

كانت لحظات خاطفة تقطر ألما لم تمحه السنوات التي مرت، ولاتزال سلسلة الاعوام تمتد وتمتد وربما الى مالانهاية !

هو متأكد بأنها لن تعود وأنه لن يراها ، وربما غادرت الدنيا بأسرها ، وحتى لو كانت تتنفس الحياة فربما نسيت كل شيء ، وغاصت في أعماق الدنيا بمشاغلها ومرارتها وحلاوتها وحتى لو التقاها ذات يوم فقد لا يكون له في ذاكرتها أي حرف أو كلمة !

كانت هي تحلم بأن تلتصق به للأبد ، لكنه لم يفكر كما كانت هي تفكر !

لكن

ذكراها الرقيقة ترن في أعماقه ولا تريد مغادرتها !

كم كانت صادقة تلك المشاعر الملتهبة التي توقدت في أتون المشاعر الدفاقة ! ؟

الدوامة



دوامات في اعماقه لا يعرف

كيف ولا من أين أتت!

كلما أراد الغوص ليستكشفها

تأخذه الدوامات وتلقي به في جوف

الزمن!

هناك حيث اللهيب، حيث

الجروح، حيث الألم!

تساؤل

أحيانا، بل دوما يسائل رفيق نفسه: هل كنت فعلا كما كنت أظن؟

هل صحيح أنني كنت أعيش حقا؟

هل كانت تلك السطور بداية قصة، أم خطوط وهم وخيال؟

يقف ويقف ويقف

يقف ليسأل الفراغ: هل تحتفظ لي بحكاية عني؟

هل رأيتني ذات زمن أكتب شيئا، وهل قرأت ما كتبته؟

ويرفع عقيرته: أيها الفراغ.. أيها الفراغ!!

وتردد الآفاق صدى صوته المكلوم، وتنتظر أي أحد يجيبه، لكن لا شيء!

يرجع بصره كسيرا كسيف البال، ويغوص مرة أخرى إلى أعماق الألم لعله يصطاد أنينا أو صوتا حنين!

نسمات الفجر



كعادته بعد صلاة كل فجر وقد غادر المسجد، وقف يستنشق نسمات الفجر الرقيقة المفعمة بعبير زهور شجيرات النيم، يصيخ السمع لزقزقة العصافير والطيور التي تتوزع على فروع الشجيرات، يتساءل في نفسه عما تقوله هذه المخلوقات الرقيقة، ويجيب نفسه هامسا في أذن مشاعره: إنها تسبح ربها وتذكره!

ويغبطها على هذه النعمة، ويردد في نفسه: إذا كانت هذه المتعة بهذا الجمال فكيف بجال جنة الخلد ؟ !

الصديق



ويجلس على كرسيه الذي لا يمل منه ولا يمله، فقد أصبحا صديقان، بل شقيقان توأم، يجدان راحتهما معا، كلاهما يناجي رفيقه يبثه لواعج مشاعره، ويعرف أسراره ويعاني همومه !

قد لا يكون الصديق من البشر أو من الكائنات الحية ولا حتى من سكان المريخ ، وليس شرطا أن يكون له لسان وشفتين، فليس لازما أن يتكلم أو يعبر عن

شيء في داخله، قد يحتاج المرء إلى كائن ما > أي كائن< فقط ليستمع وينصت، لا مشاعر له، ولا يملك أية أحاسيس أو أدنى عاطفة ، يكفي أن يوفر بيئة مريحة، وسكونا وهدوءا، ثقة بعد إفشاء الأسرار أو التعبير عن شعوره بالتعب أو الإرهاق أو حتى مجرد الطفش!

"الكرسي " هو أجمل المخلوقات التي لا روح لها، لكنه كتوم ولا يعترض ولا يتأفف، ساكن صامت، هادئ لا ضجيج ولا حتى همهمة!

تساؤل صعب

في ثناياه تساؤل يرن دوما في ذاكرته وحاضره، يبرق بين غمام الفكر، ويرعد لحظات يقول له: هل فعلا وجدت عصفورة الأمل، وأمل الحياة وهل عشت سنوات العمر كما تخيلت، أم أنني كنت أرى أضغاث أحلام؟



ويردد رفيق في نفسه: هل الحب كائن حقيقي أم محض خيال شعراء وأغاني ترسخت في المشاعر وأوهام عشتها طوال الحياة؟

وهل لازلت أعيش الوهم، وهل كان وهما فعلا في غفوة طالت؟

أصبح يقلب وريقات حياته صفحة صفحة، ويدقق في كل سطورها وكلماتها وعباراتها وحروفها !

يقف عند كل نقطة ويحملق في كل جملة يفحصها كأنه خبير مجوهرات يتأكد من سلامتها من الزيف !

في داخله أجيج وضجيج، بركان يغلي، يبحث عن شقوق أو فجوة لعله يتنفس الصعداء !

وفي كل مرة يعود الى داخله يكتم انفاسه لعله يفيق من يقظته !

القلب الحياة



بين جنبيه مخلوق صغير لا ينفك يطرق نوافذ مشاعره كأنه يتسول لحظة أمل أو أمل لحظة!

رغم تقدم السنين وكثرة أعراض الشيخوخة وآثارها، هو يشعر بأنه في مقتبل العمر!

يقول له كثيرون ممن يعرفونه: أنت فيك روح الشباب!

فينتشي لهذه العبارة المشرقة، ويصدق قائلها، لعله ينفك من عقال التعب وتعب الكبر!

الإنسان وربما حتى الكائنات الحية وحتى النباتات تنتظر لمسة حنان، وكلمة حلوة وعبارة تذوب في الداخل تمنحه جرعة أمل تدفعه نحو مزيد من الحياة!

الأمل



الحياة بلا أمل موت بلا صراخ!

والحياة بلا عمل صراخ بلا أمل!

نعيش في دنيانا لأنه يجب علينا أن نعيش حيث نحن، ولأن الحياة لا تمضي في طريقها الا إذا تفاعلنا معها وأمددناها بطاقة من حركتنا، فلابد أن نتحرك وان نصنع الفرق!

الطريق طويل أو قصير، كل حسب ما يشعر وما يفهمه من فلسفة الحياة!

بعضنا عرف الحقيقة واستوعب الدرس فرتب نفسه حسب ظروفه وتكيف معها ليقضي الله أمرا كان مفعولا!

وبعضنا لا يريد ان يعرف ولا ان يستوعب الواقع، فيصادم كل شيء حتى نفسه!

كلنا ننتظر قطار الحياة ليصل!

لكن هل كلنا سيقفز داخله ويقعد حيث يقعد؟

من لا يسرع فلن يلحق بالركب، وسيقف في مكانه حتى يأتيه قطار النهاية!

الحياة بلا حراك موت بطيء، ونهاية مأساوية!

العمل والانتاجية هي مفتاح الحياة الجميلة!

الانتظار موت قاتل خاصة إن كان بلا غاية!

الانتظار مجرد الانتظار، هو فقاعة في دوامة عاصفة!

الحياة بلا أمل ولا عمل عدوان على الانسانية التي تعيش في داخل كل واحد منا!

عصافير

وقف رفيق يصيخ سمعه يستمتع بزقزقة العصافير ويستنشق نسائم الفجر الرقيقة اللطيفة

قال في نفسه: يا ترى هل بينكم عصفورتي التي غابت عني؟

هل رأيتموها ذات فجر؟



هل تسمعون دقات قلبي فتبلغوها رسائله؟

أيتها العصافير السعيدة أشركوني معكم لعلي افهم ما تقولونه!

أيتها العصافير الحرة خذوني معكم حيث شئتم لعلي أجدها نائمة على وريقة ورد او فرع شجيرة؟!

أيتها العصافير علموني لغتكم لأخبركم بأسراري!

أيتها العصافير الرقيقة هل تشعرون ما أشعر؟

ذات الرداء الازرق:

ما ان ينشق ظلام الليل وتبدأ تباشير الفجر تخطو نحو الحياة حتى يصل رفيق الى مجلسه اليومي على الصخرة المطلة على شاطئ البحر يرقب الأفق لعل طائرا يحمل



وريقة من صاحبة الرداء الأزرق، ثم يبحلق في موجاته الهادئة لعلها تدفع إليه قارورة في داخلها وريقة زرقاء تحمل شوقا أو عبق عطرها الشذي!

تمر الثواني ثقيلة والدقائق مريرة وتتكوم الساعات فوق الساعات ولا يجد ما يبل عطش قلبه الملتاع، فيعود كسير الخاطر إلى صومعته في قمة الألم حيث لا أحد يعيش معه سوى أساه!

مرت عليه سنوات وهو يجتر أوهامه ويتجرع همومه ولا أحد يعلم به ولا من يفكر فيه!

يحاول جاهدا نسيان أوهامه ومحو ذكرياته البائدة، لكنه في كل مرة يفشل في تناسي ما مضى، فالذكريات عميقة والجراح حريق ملتهب لا يهمد!

يشعر في قرارة نفسه أنه مخطئ وأنه لن يحصل أي شيء، لكنه يجد نفسه منساقا دون إرادة وبدون وعي نحو الهاوية!

مفاجأة



عند مدخل الفندق وقفت امرأة يظهر عليها كبر السن ترتدي نظارة سميكة وتقف بجوارها فتاة في العاشرة من العمر، كانت المرأة وهي تتكئ على عصا بنية اللون تطيل النظر في رفيق الذي كان يجلس على كرسي بجوار محل تجاري صغير، وهو لا يدري عن نظراتها، وربما لم يلفت انتباهه وجودها اصلا!

لكن النظرات طالت وطالت حتى كادت تخرق جدار النسيان والتناسي وتتجاوز حدود الزمن كلها!

في حركة غير إرادية التف رفيق إلى جهة المرأة ولاحظ نظراتها الحارقة التي كادت تكوي أضلعه وتذيب فكره!

في البداية لم يشعر بأي شيء غريب يستحق الاهتمام، لكنه همس في أعماقه يقول:

ما بال هذه العجوز ترمقني بنظراتها هكذا؟

أشاح بوجهه عن المرأة وهم بمغادرة المكان فقام من على الكرسي وتوجه الى جهة تبعد عن العجوز، وغاب عن ناظريها !

بعد صلاة العشاء توجه رفيق نحو مطعم الفندق ومعه زوجته عبلة وابنته الوحيدة لولو لتناول وجبة العشاء وبينما كان واقفا عند صواني البوفيه وفي يده اليسرى طبق متوسط الحجم وهم بأخذ بعض السلطات ووضعها على الطبق رأى المرأة ذاتها تقف قبله ومعها ابنتها، تلكأ قليلا حتى لا يقترب منها محاولا الابتعاد قدر الامكان عنها .



انتهى من تعبئة الطبق بما لذ وطاب له وعاد الى الطاولة منتظرا زوجته وابنته ليبدأ تناول الطعام، فوجيء بأن المرأة وابنتها كانتا جالستين في الجهة المقابلة لهم وكان وجهها في وجهه !

انتبه ان نظراتها المبحلقة من وراء النظارة السميكة تكاد تصيبه كسهم موجه اليه، وحتى يفر من الموقف غير مجلسه في الطاولة بحيث يبتعد عن مرمى نظرات العجوز !

كانت المرأة طوال وقت تناولها للطعام لا تنفك عن النظر الى رفيق حتى ولو لم ينظر اليها، وكأنها كانت تشعر بإحساس عميق نحوه لا تدري كنهه ولا تعرف دوافعه وكانت ابنتها تلاحق نظرات أمها مستغربة منها لكنها كانت تراقب بصمت.

انتهى رفيق وزوجته وابنتهما من العشاء وغادروا صالة الطعام ليجلسوا قليلا في الكافيه يشربون القهوة ويتناولون بعض انواع الحلى.

فجأة

رأى صاحبته آتية ومعها ابنتها ليجلسا في مكان ليس بعيد عنهم!

ما أن جلست العجوز على المقعد حتى لفت انتباهها صاحبها الذي ازعجته بنظراتها المريبة، وكأنها لم تجد ما يشغلها عن ملاحقة الرجل بعينيها، حتى ان ابنتها حاولت لفت انتباهها بحركة فأوقعت قارورة الماء على الارض عند قدمي أمها، فانشغلت لحظات لكنها عادت الى حالتها.

تجرأت البنت وأرادت سؤال أمها عما تفعله لكنها أسكتتها بحركة من يدها فسكتت!

قام رفيق من مكانه وتوجه نحو محل صغير لبيع التحف التذكارية والعطور، لا ليشتري شيئا، ولكن ليتأكد من متابعة العجوز له، فوقف بحيث يمكنه رؤيتها وهي لا تدري، فرآها تمارس هوايتها المزعجة فعلا!

تحية الصباح

في صباح اليوم التالي وبينما كان رفيق يتناول فطوره وحده في المطعم فلم ترافقه زوجته ولا ابنتهما، وجد صاحبته تجلس في مكان قريب جدا منه!

قرر ان يبادرها فيسألها عن حالتها معه ولماذا تطارده بنظراتها، فوجيء بها وهي تبعث تحيتها مع ابتسامة فيها أسى، ومن باب الأدب رد عليها التحية باقتضاب.

لم تكتف هي بالتحية عن بعد، بل فاجأته بمجيئها اليه في طاولته وتستأذنه الجلوس معه وتناول الفطور ايضا!

شعر بحرج شديد ولم يستطع الاعتذار بصراحة، لكنه قام من مكانه وترك المطعم متوجها الى قاعة أخرى بعيدا عن العجوز، فقد خشي أن تراه زوجته مع العجوز فتحدث المصيبة، فهي امرأة حساسة ولديها غيرة عليه لا حدود لها!

مرت أيام على هذه الحكاية وكان يحاول الابتعاد عن المرأة ونظراتها المريبة وحركاتها الجريئة، حتى كاد أن يغادر الفندق إلى آخر ليكون في مأمن وليبعد أي شبهة عنه، خاصة مع زوجته.



لكن العجوز كانت تحاول التلصص وتتبع حركاته وسكناته، وكأنها عرفت رقم غرفته ورغبت في الانتقال الى جواره، لكن الفندق اعتذر بسبب كثافة النزلاء.

ذات مساء وبينما كان يهم بركوب المصعد ليصل الى غرفتهم كانت العجوز تقف قريبا منه دون ابنتها، حاولت ركوب المصعد معه لكنه سارع واغلق الباب وتنفس الصعداء!

في صبيحة أحد الايام وبينما كان جالسا على كنبة وثيرة وبيده الجوال وأمامه على الطاولة فنجان القهوة التركية، رأى المرأة تجلس على كنبة أخرى ليست بعيدة عنه وكعادتها كانت تطيل النظر إليه أحيانا وتسترقه أخرى، وكان يحاول إظهار عدم اهتمامه بها، رغم أنه في داخله كان يشعر بشيء ما يجوس في زوايا إحساسه!

بدأت الشكوك تدور في تفكيره: يا ترى من هذه المرأة وماذا تريد، ومن أي بلد، وهل هي تعرفني حقا أم أنها مشتبهة في؟

ما ان انتهى مما كان يشغله في الجوال قام مسرعا نحو المصعد ليعود إلى أهله.

فوجيء بالمرأة تلتحق به وتركب معه المصعد ! !

كان صامتا طوال الوقت مرخيا سدول الحياء كلها وكأنه لا يوجد أي كائن معه، لكنها وضعت يمينها الى كتفه اليسرى قائلة له بالإنجليزية: ألست أنت رفيق؟

صدم من الحركة ومن السؤال وارتبك لكنه أجابها دون تلعثم: نعم أنا رفيق!

سألته: الا تذكرني؟

قبل ستين عاما عندما كنا صغارا التقينا وتعارفنا لأننا سكنا عندكم في البيت عدة أشهر؟ شعر رفيق بدوار كاد يفقده صوابه، واسترجع شريط الذكريات الذي علاه غبار السنين، وتنحنح سائلا: هل أنت . . . ؟

قالت العجوز: نعم أنا هي!

وتناثرت المشاعر وسقطت كل استار الذكريات وكأنما كان في سبات عميق ابتسم ابتسامة مجروحة وتنهد من كل أعماقه سائلا: هل أنت متأكدة أنك هدى؟

لماذا اصبحت هكذا عجوز تتكئين على عكاز، وهل تلك الفتاة ابنتك، وما الذي جاء بكما الى هنا، وأين زوجك؟

تصاعدت تنهيدة ساخنة من قلبها قائلة:

نعم أنا هدى، تلك الفتاة التي شغفت بك وكانت تحلم ان تكون زوجة لك، لكنك لم توافق واعتذرت بأنك لازلت طالبا تدرس ولست مؤهلا للزواج!



نعم أنا تلك التي كاد قلبها ينخلع يوم غادرنا بيتكم لنعود الى بلادنا !

قال لها بهدوء:

ولا زلت اذكر دمعاتك التي تساقطت في سكون وأسى وعيناك تبرقان بنزيف صامت، في تلك اللحظة كنت أتمنى أن اخطفك من بين أبويك وأهرب الى الفضاء !

وعندما وصل المصعد الدور الذي يسكن فيه رفيق ودعها بحرقة لكنه لم يتجرأ على تجاوز الحدود، ولم ينس اعطاءها رقم جواله وأخد رقم جوالها، وودعا بعضهما لعلهما يلتقيان مرة أخرى!

عادت هدى الى غرفتها وكانت ابنتها مستلقية على سريرها كأنها تنتظرها، فلما دخلت عليها قفزت من السرير لتحتضنها وكأنها غابت عنها اياما .

ضمتها الى صدرها وربتت على ظهرها وطبعت على جبينها قبلة حب أموية.

ولما عاد رفيق الى زوجته وابنتهما وجدهما ينتظرانه بشوق وتوقعا أن يحمل اليها شيئا يأكلانه فقد شعرا بشيء من الجوع اعتذر اليهما لأنه لم يحضر معه شيئا، لكنه اتصل بمطعم الفندق ليحضر لهم وجبة عشاء .



ما ان انتهى رفيق من عشائه مع زوجته وابنتهما خرج الى البلكونة ليشعر بشيء من الهدوء والراحة بعد المفاجأة التي حصلت له.

جاءت ابنته لتشاركه الوقفة ونادى على هدى لتكون معهما، لكنها اعتذرت لرغبتها في التمدد قليلا تريح ظهرها .

اتكأ رفيق على جدار البلكونة وعيناه تسافران في الفراغ وتفكيره يسابق عينيه، وكانت مشاعره تطير في الهواء كعصفورة تائهة تبحث عن عشها !

أذان استانبول



لحظات الفجر من أمتع أوقات اليوم لدى رفيق، فكان يخرج الى البلكونة ويصيخ سمعه ليلتقط أصوات المؤذنين الجميلة كأنها سمفونية عظمى يعزفها فنانون كبار ومعروف أن الأذان في تركيا له خصوصية وقواعد وتنظيم، ولا يؤذن الا من يستحق بعد تدريب حسب الأسس المتبعة منذ مئات السنين !

كان رفيق يعشق هذه السمفونية التي لا يشبهها أي نغم، خاصة وان المساجد متباعدة فيردد الفضاء الاصوات كانه صدى تتغنى به الحياة.

فإذا انتهى الأذان يوقظ عبلة ولولو ليؤدوا صلاة الفجر جماعة، ثم يتلون ما تيسر من كتاب الله، الاب من جواله والأم من مصحفها الذي أهداه لها والدها وتحتفظ به ويرافقها في حلها وترحالها، أما لولو فهي تغوص في جوالها تتلو منه وردها اليومي.

ولأنهم في رحلة سياحية لتركيا فغالبا يكون لديهم برنامج للتعرف على أبرز المعالم في البلد، ولكنهم لا يجبرون أنفسهم على الحراك يوميا حتى لا يصابوا بالإرهاق خاصة وان في الوقت متسع، أكثر من شهر حسبما اتفقوا عليه.



في اليوم الذي لا يكون لديهم برنامج صباحي تخلد عبلة ولولو الى النوم، أما رفيق فغالبا يتناول وجبة الافطار في مطعم الفندق، وأحيانا يطلب الفطور في الغرفة لعل زوجته وابنته يشاركانه فيه.

ارتدى ملابسه للصعود الى مطعم الفندق في السطح، مكان جميل مطل على البسفور، وكانت طيور النورس تشارك الضيوف افطارهم ولو بمجرد النظر من خلف الحاجز الزجاجي، لكن معظم الضيوف يتكرمون على النوارس بشيء من الطعام خاصة قطع وفتافيت السميط التركي!

اختار طاولة مطلة على البسفور وتوجه نحو البوفيه يعبئ طبقه بما يشتهيه من رزق الله وهو من عشاق الاجبان التركية والعسل المتساقط من قالب الشمع الطبيعي ويحب الزيتون المشوي والزيت والزعتر، ولا يترك شرب القهوة التركية فهي تعدل مزاجه دوما.

ما أن جلس على الطاولة وبدأ يتنشق الهواء اللطيف المفعم برطوبة باردة حتى وصلت صاحبة ذكريات الطفولة، جاءت هدى وبرفقتها ابنتها، فبدأت بتحيته

وتصبيحة الخير وقد وضعت حقيبتها اليدوية البيضاء على كرسي أمام طاولة قريبة من طاولة رفيق، لعل وعسى !

لم يكن رفيق يريد إثارة أشجانه وكوامنه التي كانت غائرة في أعماق احساسه، وكانه قرر ألا يتحدث مع هدى خاصة بوجود ابنتها ، لكن يبدو أنها مصرة على إكمال القصة، فهي تعيش في أغوار الذكريات وتريد استنشاق أكسجين الحاضر مهما كانت النتائج !

عادت الى طاولتها وقد حملت طبق افطارها وكانت ابنتها ترافقها ،وجلستا يتناولان افطارهما ، لكن لغة العيون تخرق جدار الصمت ، كانت هدى لا تنفك تحاول لفت انتباه رفيق وكأنها تريد ان تهمس في اعماقه بكلمة قد تهوي بحصون صموده الاسطوري ،ولم يكن لدى رفيق أدنى رغبة في مواصلة الكلام معها خوفا من تورطه معها أو انكشاف أمره أمام زوجته ،فحاول انهاء افطاره وحرم نفسه من التمتع بمتابعة طيور النورس المحلقة بالقرب من المطعم ،ومنظر البسفور الهادئ والسفن التي تمخر عبابه ، لذلك سارع الى مغادرة المطعم وتوجه نحو غرفتهم ليشعر بالأمان .

في اليوم التالي كان لديهم برنامج زيارة مدينة بورصة بالعبارة وبالطبع يحملون معهم سيارتهم ليتحركوا بحرية، لذلك ما أن أشرقت الشمس حتى كانوا في طريقهم الى مرفأ العبارات وعندما وصلوا دخلوا العبارة وأوقفوا سيارتهم المرسيدس وتوجهوا نحو المطعم لتناول وجبة الافطار.



تحلقوا حول طاولة كانت في زاوية من المطعم وقد طلبوا أطباقهم، فوجي رفيق بهدى وهي تصطحب ابنتها تدخل ليتناولا الافطار!

شعر رفيق بضرورة المكاشفة مع زوجته وإخبارها بالحقيقة حتى لا تصدم وتتحول الرحلة الى مناحة! أمضى دقائق يحدث نفسه كيف يبدأ ومتى، وهل هذا الوقت مناسب ونحن بين أناس غرباء وماذا سيحصل لو كاشف زوجته وهي امرأة طيبة هادئة وتحب التمتع بالوقت ولا يعجبها إثارة الاعصاب خاصة وانهم في رحلة استجمام وراحة؟!



لما انتهى من افطاره خرج من المطعم يتجول في ارجاء العبارة وكان يقف أحيانا يتكئ على الحاجز الابيض يفكر في كيفية التصرف، ورد على خاطره فكرة كتابة رسالة جوال الى هدى يطلب منها المبادرة بالتعرف على زوجته وابنته وبناء علاقة هادئة، وبعد أن تطمئن زوجته إليها وتبنى بينهما ثقة وصداقة جيدة، تخبرها عن القصة بحذافيرها .

لم ترق له الفكرة فصرف النظر عنها لكنه كان مقتنعا بضرورة التحرك، ربما كان لديه أمل أو طيف أمل !

في طريق العودة من بورصة اتخذ مقعدا مطلا على البحر يتمتع فيه بالجو، لعله يصل الى فكرة أخرى !

كانت زوجته وابنتهما داخل المطعم يرتشفان الكابتشينو، وهو في مجلسه مرت هدى بجواره وابنتها، وكأنها لم تنتبه لوجوده، أو لعلها تعمدت التغافل عنه لحاجة في نفسها !

وبينما كان يسبح في عوالم التفكير جاءته عبلة ولولو تحمل كأس عصير برتقال مثلج تعرف أنه يحبه فقدمته له بلطف وتناوله ثم بدأ يشرب منه، فاجأته عبلة بسؤاله عن المرأة العجوز هل يعرفها ومنذ متى وماهي القصة؟

كاد ان يصدم فعلا، وشعر بارتباك قليلا لكنه سألها عن سبب سؤالها ؟

فقالت له ان المرأة نفسها تعرفت عليها في المطعم وجلست معها وأخبرتها بكل شيء !

كاد يفقد وعيه فعلا فلم يكن يتوقع هذا بتاتا، لكنه حزم أمره وأخبر زوجته بالقصة كاملة دون نقص ولا تزييف !

كان لديه شعور بالخوف من تضخم الموضوع وتحول القصة الى جحيم، لكن عبلة طمأنته عندما أخبرته بأن المرأة محترمة وتستحق التقدير وأن لديها رغبة في التعرف عليهم بعمق وبناء علاقة متينة وليست عابرة، وأن زوجته مقتنعة ولديها رغبة جادة في ذلك، خاصة وأنهم جميعا غرباء في هذه البلد ، كما أخبرتها بأن زوجها من سوريا ، وقد عاد إلى بلده لبضعة أيام ليرتب لهم جميعا عودة آمنة ويكملوا حياتهم فيها ، بعد سنوات غربة عنها عشرات السنين، وأنه من كبار رجال الأعمال السوريين ، ولكن كل أعماله ونشاطاته التجارية في بعض دول الخليج خاصة مدينة

جدة والرياض ، وأنها وجهت لهم دعوة لزيارة سوريا بعد أن تستقر الأمور تماما قريبا جدا !

تنفس رفيق الصعداء وحمد الله على النتيجة التي لم تكن تخطر على باله !

شعر بأن الفرصة أثمن من ذهب العالم كله، فاقترح أن يدعون المرأة وابنتهما للعودة معهم بسيارتهم وطالما أنهم يسكنون في الفندق نفسه، وقد وصلوا إليه في وقت متأخر من الليل، لذلك وودعوا بعضهم على أمل تناول الغدا معا خارج الفندق في مطعم فاخر مطل على البسفور يقدم وجبات بحرية متميزة .

في صباح اليوم التالي كانت مائدة الافطار تجمع الاصدقاء الجدد جميعا ، وبدأ سرد القصص والحكايات كل يدلي بدلوه، ومن حسن الحظ أن عبلة كانت تجيد الانجليزية، بل حتى لولو وجدت في ابنة العجوز فرصة لتزجية الوقت !

وبعد صلاة الظهر خرجوا جميعا متوجهين نحو المطعم الذي سيتناولون فيه غداءهم، وكانت جلسة جميلة ممتعة بنكهة المأكولات البحرية والبهارات التركية، وفي النهاية كان الشاهي التركي وقطع البقلاوة ختام اللقاء .

خلال طريق العودة الى الفندق كان رفيق يحاول زرع الثقة في أعماق زوجته والاقتناع بالعجوز كصديقة قريبة جدا من الجميع، ويبدو أنه شعر بكثير من الطمأنينة وأنه قد نجح في تحقيق ما يريد .



اقترحت زوجته عبلة قضاء وقت المساء او تناول العشا في أحد مطاعم ومقاهي شملجا خاصة وقت ما قبل الغروب حيت تطل الجلسات على البسفور من الاعلى والجو الطف بكثير من البلد، هنا بادرت هدى بأنها ستتحمل الضيافة دون قبول أي عذر .

كان الشمس تميل الى الغروب حينما تحلقوا حول طاولة كانت تطل على البسفور، وكانت مآذن المسجد الجديد الذي يعلو إحدى قمم شملجا ترتفع بشموخ، وبدأت نسمات المساء الباردة تحاول إشغالهم بلذعاتها، لكنهم لم يأبهوا لها، وجاء النادل ليتعرف



على طلباتهم فأخبر كل منهم بما يريد، وكانت الدندرما التركية في مقدمة الطلبات!

وحينما حل وقت العشاء بادرت هدى باقتراح وجبة مشويات مشكلة ولحم بالعجين وتشكيلة مقبلات، وافق الجميع على اقتراحها، وتم الطلب.

خلال فترة الانتظار بدأ رفيق يدندن على ذكريات الصبا قبل ستين عاما حين كان في مقتبل مراهقته وكانت هدى ليست بعيدة عنه، وذكرها بشقيقاته اللاتي كن يلعبن معها، وكيف كانت تقضي لديهم أوقاتا طويلة الى درجة أنها شعرت بأنها واحدة

من العائلة، وكان والدها العم سعيد مبتهج بأن ابنته وجدت صديقات لها قريبات من سنها وكانت أمها تزورهم أحيانا وتجالس والدته.

تنحنح رفيق ثم قال: ذات مرة أبدت هدى رغبتها بالزواج مني هههه، كانت تظن الزواج مجرد لعبة، لكنها أحبت العائلة كلها وشعرت بالاندماج معنا فأرادت العيش بيننا بقية حياتها لكنها غفلت أنها كانت صغيرة السن غير مؤهلة للزواج، وحتى رفيق لم يكن يفكر في هذه الاشياء فقد كان صغيرا أيضا .

للقلوب طرق تفكير غير العقول، وهي تصر دوما على الاستقلال في أخذ قراراتها لتشعر بالتميز وأنها ذات إرادة!

كان رفيق يميل فعلا الى هدى فشخصيتها جذابة وملامحها تذيب مشاعره، وكان يشعر بأنها تهواه الى درجة العشق، وكانت تحاول إخفاء مشاعرها لكن العيون تفضح القلوب، ولم يكن رفيق بأقل منها عاطفة، وكان يتصنع إخفاء مشاعره نحوها لكنه كان يعبر أحيانا عن حبه لها بغمزة وكلمة وهمسة خفية في قلبها !

طوال حديث رفيق عن حكاية هدى أيام الصبا ،كانت زوجته تراقب كل حركة وسكنة بذكاء وكان قلبها يسترق مشاعر رفيق يحس النبض ليتعرف على المستور وكأن عبلة شعرت في داخلها بشيء من الشك حول حقيقة العلاقة بين زوجها

وبين هدى أيام زمان ،فبدأت تظهر تبرمها لكن بهدوء ودون إزعاج زوجها أو هدى ،فانتظرت حتى أوشك رفيق على ختام القصة ،فتحركت وكأنها تريد مغادرة المكان للذهاب الى دورة المياه ،فأحس رفيق بما يجوس في داخل زوجته ،فتوقف عن السرد ، وكان العشاء قد وصلت أطباقه ووضع بعضها على الطاولة ،فقامت عبلة لتغسل يديها استعدادا لتناول الطعام ومعها ابنتها ،وأما هدى فكأنها شعرت بأن القصة كانت مزعجة لزوجة رفيق فاعتذرت عما حصل ،لكن رفيق خفف عنها وحاول تغيير الموجة قليلا بتوجيه كلامه الى ابنة هدى ممازحا لها .

مر الوقت في طريقهم الى الفندق مشوبا ببعض الوجوم، يغلب عليه الصمت، ولأن رفيق كان يقود السيارة ولكثافة الحركة المرورية والازدحام الشديد المعروف عن شوارع وطرقات استانبول كان تركيزه على القيادة وقلة الكلام، وأما هدى فقد حاولت تلطيف الجو بمداعبة الصغيرتين وملاعبتهما، وأما عبلة فقد كانت تغلي في داخلها وبصمت كالبركان الهامد، ووصلوا بالسلامة الى الفندق، ومضى كل الى فراشه كالغرباء !

مضت تلك الليلة بسلام ودون اي منغصات، وكعادته عند فجر كل يوم خرج رفيق الى البلكونة ليتمتع بسماع أذان الفجر من المآذن القريبة والبعيدة بأصوات جميلة والحان ممتعة.

ولما انتهى المؤذنون، وعاد الهدوء الى البلد دخل رفيق ليؤدي صلاة سنة الفجر ومن ثم يتلو صفحات من كلام الله بعد أن أيقظ أهله للصلاة مضت دقائق حتى تجهزت زوجته وابنته وصليا السنة أقام للصلاة ووقف أمامهما ليؤمهما .

بعد انتهاء الصلاة وبعد الفراغ من أذكار الصباح انشغل كل واحد منهم بكتاب الله حتى انتهى من ورده الصباحي، ثم ارتمت عبلة على السرير وهي تتمتم بما تبقى لها من أذكار الصباح، واغمضت لولو عينيها لتواصل نومها، خاصة وأنهم اليوم ليس لديهم جولة سياحية نهارا .

بعد انتهى رفيق من أوراده وتلاوة كتاب الله ارتدى ملابسه للصعود الى المطعم لتناول وجبة الافطار كالعادة، حمد الله كثيرا أن هدى لم تظهر بعد، وتمنى ألا تأتي حتى تهدأ نفسه وترتاح قليلا من حكاية الأمس.

تناول إفطاره بهدوء على أصوات النوارس وهبات نسمات الفجر الرقيقة وخيوط الفجر المشرقة لعلها تحمل خيرا وطمأنينة!

انتهى من وجبة الافطار وطلب من العامل تنظيف الطاولة لأنه يريد ارتشاف كوبا من القهوة التركية بروقان ودون أي ازعاج!

حاول الاستمتاع بما بقي لديه من وقت بدون استرجاع لحكايات الماضي ولا حكاية البارحة الموجعة!



لكن

من يستطيع الامتناع عن تنفس الحياة واستنشاق اكسجين الذكريات، فقد هبطت عليه أسراب السنوات الخوالي المفعمة بجميل الذكريات المعطرة بعبق الحب الطفولي، فاستسلم وطفق يجاملها ويطبل لها وهي تتراقص على خشبة الذكريات

البريئة وهو يصفق لها ويتمايل معها كأنه يراقصها، وانتهى كوب القهوة وطلب آخر ليكمل متعته التي لا يعرفها أحد سواه حتى هدى نفسها !

خيوط الذكريات

طلعت الشمس واستوت وشعر بسخونتها وهي ترسل اليه بعض خيوطها كأنها تريد إيقاظه من غفوته !

خيوط الذكريات بقيت متدلية في كهف مشاعر رفيق ولم تحترق ولم تذب كما ذابت سنوات العمر، وهو لايزال يشعر بصدق مشاعرها نحوه عندما كانا يسترقان بضع دقائق وكانا يلتقيان مصادفة في الدرج صعودا ونزولا، وأحيانا .... !

رغم كثرة الفرص لكنهما كانا يتحاشيان الغرق، لأنهما لو غطسا في الاعماق فلن ينجوا من مفارقة الوجود !

وكان وجودهما مصادفة هنا بعيدا عن مرتع الذكريات ضرب من الخيال أو الاوهام، فلم يكن أي منهما يخطر على فكره أنهما سيريان بعضهما بعد كل هذه السنين لذلك شعر رفيق بأنه يعيش في دوامة مشاعر مختلطة لا بداية لها ويبدو أنه لانهاية لها، أو قد تكون الخاتمة مأساوية !

أفاق من سكرته وتذكر ان عليه العودة الى الغرفة لإيقاظ النائمتين، لعلهم يتناولون طعام الغداء في مطعم حامدي القريب من مسجد السلطان احمد، فطعامه لذيذ خاصة اللحم بالعجين الوجبة المفضلة لديهم جميعا .

فتح باب الغرفة بهدوء حتى لا يزعجهما لكنه فوجيء بهما يقظتين، فسلم عليهما واطمأن عليهما، ثم سألهما إن كانا يشتهيان تناول شيء قبل خروجهم فقالت له لولو: الحمد لله طلبنا الفطور في الغرفة وخلصناه!

قال لهما: بالعافية عليكما .

وماذا لديكم، متى تريدان الخروج بعد صلاة الظهر أم قبلها ؟

قالت عبلة: الافضل نصلي ونخرج حتى ناخد راحتنا بعد الغدا .

ظهر اشعار تلقي رسالة جوال، وكانت من هدى!

فغض الطرف عنها وكان شيئا لم يكن!

بعد انتهائهم من تناول الغداء اقترحت لولو أن يذهبوا الى السوق المصري القريب من المطعم لأنها تريد شراء هدايا لبعض صويحباتها في المدرسة، وقالت أمها: يعني أنا ما أبغا هدايا، وأنا عندي صاحبات!

تجولوا في السوق المزدحم بالسياح خاصة الخليجيين، وتشجع رفيق واشترى هدايا نسائية لأمه وأخواته وأناس آخرين !

بعد عودتهم الى الفندق وكان الوقت قبيل العشاء دعتهما عبلة لاستضافتهما في كافيه الفندق في الدور قبل الأخير ففيه جلسات جميلة وخدماته راقية.

رفيق يعشق القهوة التركية بدرجة كبيرة وبالذات إذا كانت معها قطعة بقلاوة وفي جو هادئ ولذلك لا يتعجل في الانتهاء منها، بل يرتشف منها رشفة بعد رشفة



وبمزاج كأنه يعتصر منها بعضا من ذكرياته الجميلة، ولا تكاد عبلة تختلف عنه فهي تحبها وتتفنن في تجهيزها بمزاج وروقان، وبينما هم يتمتعون بجلستهم إذا بهدى تخرج من المصعد ومعها ابنتها فسلمت عليهم لعلهم يدعونها لمشاركتهم الجلسة العائلية، وقد

فعلوا، فقد دعتها عبلة، وقفزت ابنتهما لتسحب ابنة هدى نحوها فمنذ ليلة شملجا لم يلتقيا ولم يجتمعوا كلهم معا .

سحبت عبلة كرسيا كان قريبا منها لتجلس عليه هدى وتنحى رفيق قليلا ليفسح المجال لشريكة ذكريات الطفولة لتجلس براحتها، بادرت هدى بطلب قهوتها من النادل، وطلبت لابنتها كذلك.

وانتعش الجو قليلا وبدأ الحديث يدور بينهم، وطالت الجلسة حتى منتصف الليل، فقاموا جميعا بعد أن أطفئت أنوار المقهى وخرج الرواد بعضهم توجه نحو المصاعد ومنهم من توجه نحو الدرج ربما لأن غرفهم قريبة.

خبر

في صباح اليوم التالي وبعد تناول رفيق افطاره في مطعم الفندق، أراد شرب كوب من القهوة بهدوء في زاوية من المطعم بعيدة عن مطلع الشمس وليست مرئية للآخرين، فوجيء بهدى وابنتها يأتيانه وكانا لم يتناولا افطارهما بعد، فسلما عليه وصبحا بالخير، قالت له هدى بأن زوجها سيصل اليوم من سوريا بعد الظهر وقد يتناول الغداء في الفندق، ودعته ليشاركهم هو وزوجته وابنته.

حاول الاعتذار لكنها أصرت على تلبية الدعوة فهي فرصة ليتعرف على زوجها وربما يحمل لهم اخبارا سارة!

طلب قهوته وجلس في زاويته بعد ذهبت هدى وابنتها ليفطرا على طاولة منفردة وكأنها شعرت برغبة رفيق في انفراده بعيدا عن الناس فاستأذنت.



وبينما رفيق يرتشف قهوته بمزاج وروقان سرح فكره بعيدا بعيدا عن تركيا وسافر الى الماضي الذي لم يتوقف رنين ذكرياته في مشاعره طوال الوقت، وقد أحيا لقاؤه برفيقة الأمس كل ماكان مدفونا وأشعل فتيل أحاسيسه الجريحة، لكن!

لكن كل هذا التفكير واسترجاع الذكريات لن يجدي، فكل الظروف تغيرت، وما كان حلما تحول الى وهم لا وجود له، وحتى نسمة الأمل التي كانت تهب على خاطره خفتت رويدا رويدا وكادت تموت!

عندما نظر الى ساعة يده الذكية فوجيء بالوقت وقد تأخر عن موعد عودته الى الغرفة ليتمدد ويريح ظهره قليلا، خاصة وأنه لا يريد خسارة فرصة التعرف على زوج رفيقة الامس، والذي كان المفروض أن يكون هو!

تنفس من جوف أعماقه وتنهد بحسرة وكأنه مجروح الفؤاد كسير الخاطر هم بالقيام من زاويته فإذا بهدى وابنتها يصلان اليه وكأنهما يرغبان في الجلوس معه قليلا لكنه اعتذر لحاجته الى بعض الراحة.

في قلب الدوامة



العيش في بؤرة دوامة عنيفة يفقد المرء أي احساس بالعالم من حوله تماما!

عندما تتراكم المشاعر وتلتهب الأحاسيس وتشتعل الأحزان وتتدحرج الأمنيات وتتطاير الأحلام لا يبقى أمام المرء الا ان يستسلم للواقع الذي يعيشه!

وتمر السنوات في لمح البصر أو أسرع، وتتقلب صفحات الذكريات بسرعة البرق أو أشد، يحاول رفيق أن يمسك بأول خيط الأحجية لكنه في كل محاولة يفشل وتتكرر معه الحالة، وحاول مرات ومرات تناسي الأيام الخوالي، لكنها تتراقص أمام قلبه رغما عنه وهو يعلم تماما أن شيئا مما مضى لن يعود، وأن الحاضر لن يكون بوابة إليه بتاتا، لأنه نافذة الى المستقبل إلا إذا انقلبت الموازين واختلطت الاوراق فعلا فلا الماضي يكون ماضيا ولا الحاضر يصبح ماضيا ولا المستقبل يأتي في غير موعده!

صحيح أنه التقى هدى بعد غياب عقود لكنها تعيش في طريق وهو يخترق جدار الحياة على طريق آخر!

هي الان متزوجة وزوجها موجود ولديها ابنة، فلا يمكن أن تنقلب الامور وتتغير الظروف كما يهوى ويشتهي وقد جفت الأقلام وطويت الصحف فعلا!

ترى

هل يستسلم رفيق أم سيظل يعيش على أمل؟

ربما، لكنه الوهم فعلا، وماهي الا كومة وساوس تحاول بسط أجنحتها على فكره ومشاعره وليس له الا إدارة ظهره لكل ما مضى، وينطلق الى الحياة من بوابة أخرى حتى تستقر نفسه ويطمأن قلبه!

مقطوعة

بعدما أدى رفيق وزوجته وابنته صلاة الظهر، دق جرس هاتف الغرفة فإذا هدى تذكرهم بعدم التأخر لأن زوجها ياسر قد وصل من سوريا وينتظرونهم بعد عشر دقائق في مدخل الفندق ليذهبوا جميعا الى مطعم مطل على البسفور وقريبا من الجسر.

كعادته لم يتأخر رفيق وزوجته وابنتهما عن المنتظرين لهم في بهو الفندق.



ما أن رأى رفيق زوج هدى حتى أسرع خطاه ليعتنقه ويهنئه بسلامة الوصول وعبر عن سعادته بالتعرف عليه، كذلك فعل ياسر زوج هدى، ولم يطل وقت تعارفهم كثيرا فغادروا الفندق إلى حيث المطعم.

خلال الطريق حكى ياسر لرفيق بعضا من ذكرياته في مدينة جدة حيث ولد ونشأ ودرس حتى الجامعة حيث تخصص في إدارة الاعمال بجامعة الملك عبد العزيز، وأنه

عاش طوال شبابه في جدة حتى آن وقت العودة الى سوريا حيث الأهل والأقارب والوطن.

أعرب رفيق عن عظيم فرحته بهذه الاخبار الجميلة وشعر بالأنس مع ياسر فقد شعر ببساطته وعدم تكلفه في كلامه، حيث فتح له صفحات حياته.. لكنه لم يحدثه عن زواجه بهدى!

في المطعم كانت الفرصة متاحة لإكمال القصة فسأل رفيق ياسر عن زواجه بهدى وكيف تعرف عليها وهي من بلد ليس عربي، وهي ليست مقيمة في جدة ولا حتى مكة المكرمة!

قال ياسر بأنه تعرف على أسرتها في إحدى رحلاته الصيفية في تركيا حيث كانوا يزورونها لأول مرة لا يعرفون عنها أي شيء، وبالمصادفة سأله والدها العم سعيد عن موقع متحف بانوراما التاريخي وعن أسوار القسطنطينية، فأخبره لكنه دعاهم لمرافقته وأهله لان وجهتهم واحدة وكانت فرصة حيث رأى هدى فأعجب بأدبها ولفت انتباهه ملامح جمالها الهادئة وتدينها ومحافظتها على حيائها!

معرفة قديمة

عندما رأى رفيق زوج هدى ياسر لم يفاجأ به فقد شعر بأنه سبق له رؤيته، لكن أين ومتى وكيف؟

تساؤلات عديدة تصاعدت في خاطره، ولذلك قال له. هل سبق ان التقينا ؟ يبدو ذلك وربما أكثر من مرة، فهل تذكر؟



قال له ياسر: فعلا وأنا أشعر بمثل هذا، دعني أفتش ذاكرتي لعلها تسعفني!

قال رفيق: أين كنتم تسكنون في جدة؟

قال ياسر في حي الصفا قريبا من شارع الصحافة وبالذات مقر جريدة المدينة المنورة!

هنا انبسطت أسارير رفيق ومد يده لياسر ليصافحه بحرارة، وقال: الان عرفت، نحن كنا نسكن في الحي نفسه، ويبدو أنا كنا نصلي في مسجد واحد وربما التقينا عدة مرات في البقالة التي كانت تحت عمارة بن دبوس بقالة عم يحي اليماني ذلك الرجل الطيب؟

: صح نحن كنا نسكن فيها في الدور الثاني المطل على الحديقة، وكأني كنت أراك عند مدخل عمارة أبو دلش وكنت تجلس كثيرا عند مكتب العقار الذي كان تحتها ؟

قال رفيق: كان صاحب المكتب من أقاربنا لذلك كنت أجلس عنده!

طوال هذه الدردشة كانت هدى وعبلة يتابعانهما باهتمام بالغ، لكنهما كانتا سعيدتان للذكريات المشتركة بين زوجيهما في جدة، ومن المؤكد أن أحداثا سارة ستحصل بعد هذا اللقاء وجاء الغداء ووصلت أطباقه وأبخرة روائحها اللذيذة تدعوهم جميعا إلى تناولها قبل أن تبرد، فشمروا السواعد وسموا الله وبدأت الملحمة الكبرى!

غليان



مهما حاول المرء إخفاء مشاعره العميقة والعتيقة خاصة فإنه لابد واقع تحت تأثيرها شاء أم أبى، فهي تقود تفكيره وتجبره على سلوك طرق قد لا يرغب في السير فيها ولو مؤقتا !

كلما مر يوم على رفيق وهو يقابل هدى ويراها صباحا ومساءا فإنها تثير كوامنه الجريحة وتحاول إجباره على الخوض في صراع داخلي، فأعماقه تغلي كبركان متجدد، ويعايش مرحلة صعبة جدا، وهو مجبر على إخفاء ما يعانيه بوجوده مع زوجته وابنتهما، وتزداد حيرته وتصرخ آلامه كلما التقى مع هدى وزوجها خاصة عندما يطول اللقاء ويكثر الكلام واستجرار الذكريات !

وبعد أن تعرف على ياسر زوج هدى وسردا ذكرياتهما المشتركة في جدة، أصبح يشعر في قلق لا نهاية له وتمنى لو لم تكن بينهما معرفة سابقة، لكن لا فائدة،

فقد حصل ما حصل، ولابد من مواجهة الحقيقة كما هي، وما مضى قد مضى، خاصة إن كانت العلاقة ستدوم وتتطور ولا يعرف لها مصيرا واضح!

عندما صعد رفيق الى مطعم الفندق لتناول افطاره فوجيء بهدى وزوجها وابنتهما يتناولون إفطارهم، فحياهم ولم يفكر في مشاركتهم الجلسة، فاختار طاولة بعيدة عنهم في بلكونة المطعم تطل على البسفور يريد استنشاق أوكسجين الصباح والتمتع بإزعاج النوارس الجميلة، وما كاد ان ينتهي من إفطاره حتى جاء اليه ياسر واستأذن منه في الجلوس معه لأنه يريد الكلام معه.

قال ياسر: نحن بحول الله سنغادر استانبول غدا متوجهون الى الشام، مدينة دمشق حيث إننا نملك بيتا تركناه بسبب الأزمة والان ننوي العودة والاستقرار في بلادنا، ونرجو ان تستقر الأوضاع بصورة أفضل ودائمة، ثم أضاف: ويسعدني فعلا أن تزورونا في دمشق ونستضيفكم في بيتنا أو بالأصح بيتكم الأول!

أبدى رفيق عدم توقعه خبر مغادرتهم وأنه كان يتمنى بقاءهم مدة أطول حتى يستمتعوا أكثر بهذه الفرصة الذهبية معا وشكر ياسر على دعوته زيارتهم في سوريا راجيا بأن يتمم الله ذلك في القريب العاجل.

كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحا فاستأذن رفيق من ياسر لأنه يريد العودة الى الغرفة وأخذ بعض الراحة، غادر رفيق المطعم بعد ان شكرهم وودعهم وتوجه إلى غرفتهم وهو لا يدري أيفرح بالخبر أم أنه سيتحول إلى سلسلة جديدة من الالام.

علامات استفهام

دخل غرفتهم وفي جعبته الكثير من علامات الاستفهام وأكواما من علامات التعجب والدهشة، شعر بأنه عاد إلى عالم الدوامات اللانهائية، فبعد أن كان يحلم بعودة عصفورته ويخاطب الفراغ عنها، ولم يصدق أنه يراها بشحمها ولحمها وأمام عينيه ليل نهار، ويجلس معها ويسافران ويتنزهان ويأكلان ويشربان، لكن معهم آخرون وكل منهما متزوج ولديه ابنة، واليوم صدمه زوجها بخبر مغادرتهما تركيا ليسافروا إلى سوريا حيث ستعيش وتمضي بقية عمرها هناك، أما هو فسيعود إلى بلده وقد اختلطت عليه الأمور كلها ولم يعر يعرف رأسه من قدميه!

بدون أن يغسل فمه ويده من آثار الطعام، استلقى على كنبة في مدخل الغرفة ليرتاح قليلا لعله يشعر بشيء من الهدوء.

الرحيل

لم يتبق على نهاية رحلة رفيق وزوجته وابنتهما الى تركيا الا بضعة أيام ،ولأنهم كانت لهم صولات وجولات في المواقع والمدن السياحية داخل وخارج استانبول فقد مرت الايام سراعا ،ولولا اقتراب موعد الدراسة ونهاية إجازة رفيق السنوية لما غادروا ،وقد اتصل بهم قبل يومين شقيق عبلة ليبشرها بأن ابنه قد وفق لاختيار زوجة من إحدى العوائل القريبة منهم وسيتم عقد قرانه خلال أيام ،لذلك بدأ الرفاق في الاستعداد للرحيل ومن الطبيعي الذهاب الى الاسواق لشراء ما خف وزنه وغلت قيمته من هدايا لأهلهم الاقربين خاصة وأن عبلة تسافر لأول مرة الى تركيا .

تذكر رفيق كلام ياسر زوج هدى ودعوته لهم بزيارتهم في سوريا في أقرب فرصة ممكنة، وهذه أغلى فرصة لتجديد العهد برؤية هدى، وربما ستكون سوريا بعد الان هي أفضل وجهة سياحية بالنسبة له!

دوامة الذكريات

بعد العصر صعد رفيق الى مطعم الفندق ليقضي بعض الوقت مع نفسه بعيدا عن كل الناس!

اختار طاولة فردية مطلة على البسفور وطلب قهوة تركية وقطعة بقلاوة، وما أن جلس على المقعد حتى بدأت سيالة الذكريات العتيقة واحداث الحاضر المفعمة بالمفاجآت تنهال على مشاعره وتوقد في اعماقه الكثير من علامات الاستفهام والتعجب، نكأت في اعماقه جراحا كادت تندمل، وتشعل في أحاسيسه آلاما قد لا تغور بتاتا !



وتذكر كيف كان يأمل ويتمنى رؤية عصفورته التي طارت بعيدا عنه وقد آيس رؤيتها ثانية فإذا بها تظهر له وتأتيه بذاتها كأنها تتعمد تعميق جراحه!

لم يصدق حتى اللحظة أنه وجدها أخيرا وأصبحت أمام عينيه ليلا ونهارا، يجالسها ويجالسه وتعرف على زوجها كذلك، بل إن زوجها دعاهم الى زيارتهم في سوريا !

لا يكاد يصدق أن ما حصل قد حصل فعلا، ويحاول ان يصدق، لكنه يعود فيكذب مشاعره قبل بصره ويتهم نفسه بأنه يحلم أو يوهم نفسه بما حصل !

ويتوقف لحظات عند محطة الواقع ويفرك عينيه محاولا التأكد من أنه يقظ وبكامل عقله !

ويسائل نفسه: وماذا بعد ؟

ماذا يمكن فعله بعد كل ما جرى، هل يقتل ذكرياته ويميت أحلامه ويدفن كل أمنياته ؟

هل يتمكن من محو صفحات الماضي والحاضر أيضا ؟

وهل سيغتنم الفرصة لتجديد العهد مرارا بهدى فيزورهم في سوريا فعلا أم ينسى كل شيء وكأن ما حدث لم يحدث، ولا يسمح لأي حكاية جديدة بالولادة ؟



استجرار الذكريات يحمل في ثناياه كثيرا من المشاعر الجريحة وينكأ الالام العتيقة!

لكن

هل من فكاك من هذه الدوامة؟

مهما حاول المرء التخلص منها سيجد نفسه وقد هوى الى القاع وربما يذوب ويتلاشى!

في الأيام الأخيرة بدأ رفيق يشعر بضيق تنفسه حتى ولو كان في سطح العالم!

تتجاذبه تناقضات وتشده من كل اتجاه!

كلما عزم على محو صفحات الأمس يجد نفسه يعيد كتابتها بقلم مجروح!

رؤيته لعصفورته التي كانت مجرد حلم لم تتركه يسرح ويمرح في أعماق الفرح!

كم كان يتمنى عودة العصفورة إلى حاضره من ماضي ذكرياته، لكنها لما اعتلت بصره شعر بطعنات عميقة في كل جوانحه!

رؤيته لزوجها وابنتها كان جرحا مؤلما قتل كل احلامه الذهبية البراقة!

كم كان يحلم بأن يلتقي مع العصفورة وان يصطادها ويسكنها قفص مشاعره، لكنه الان فقد كل أمل ولم يبق له وقت لامتطاء فرس الأحلام!



الوداع

عندما حان اليوم الذي سترحل فيه هدى وزوجها وابنتهما من تركيا متوجهون نحو سوريا، كان ثمة قلب يخفق بدون وعي، وأحاسيس غادرت الواقع نحو المجهول، جلس رفيق في بلكونة الغرفة على كرسي ممدا قدميه على طاولة كانت أمامه وعقد ذراعيه خلف رأسه يحاول عبور



نهر الفراق بهدوء ودون ان يشعر به أحد وكأن ذلك الموقف الذي حصل قبل ستين عاما قد ولد من جديد وتخيل نفسه يودع ذكراه العتيقة وهو يتمنى اختطاف ذلك القلب الذي سرق منه الهدوء وأوقعه في شراك الاحلام الوردية!

وحانت لحظات الوداع فعلا!

كان مدخل الفندق موعد اللقاء الاخير بينهم، لذلك غادر رفيق البلكونة ونزل مع زوجته وابنته ليكونوا في وداع المغادرين.

ونزلت هدى تمسك بيدها اليسرى ابنتها وتتوكأ على عصاتها، وكانت عيناها تبرقان كعيني الصقر تبحث عن فريسة لتنقض عليها وتختطفها !



عندما رآها شعر كأنها تريد أن تهمس في قلبه بشيء حاولت إخفاءه طوال هذه الأيام، لكن الظروف لا تسمح للطرفين قولا واستماعا، سأل نفسه عما يجوس في مشاعرها، هل تشعر بما اشعر به، هل تريد البوح بما أريد قوله؟

وقف رفيق يودع ياسر ووقفت عبلة تودع هدى، لكن الصغيرتان تمسكت كل واحدة منهما بتلابيب أمها، وكانت عيناهما تذرفان بدموع البراءة ملؤها الحب والخوف من الفراق !

وخرج الجميع من بهو الفندق وركب المغادرون سيارتهم، وتتبعت عينا رفيق عصفورته التي ستطير بعيدا عنه مرة أخرى !

بعيدا عن أعين البشر كلهم حبس رفيق في أحاسيسه المجروحة دمعات ساخنات لذعت قلبه وكوت مشاعره، فيا هول الفراق، ترى هل سيكون الأخير والأخير جدا، أم ستتجدد المشاعر وتتنامى الذكريات مرة واثنتين وثلاث ورباع؟



شتان بين فراق مضى قبل ستين عاما ، وفراق حاضر ، كانا صغيران – في حكم الزمن – لكنهما كانا يعيشان حياة أخرى غير ما يعرفه عوام الأحياء ، واليوم تغيرت الظروف ، وكبرا وأصبح كل منهما يعيش حياة خاصة به فله زوجه وابنة ولها زوج وابنة ،ولم تعد تلك الأحلام ترفرف على خيالهما الذي دبت فيه الشيخوخة ، ولم تعد الطموحات ترنو إلى الأفق ولا حتى إلى قمم أدنى الجبال ، فقد أصبحت أكوام المسئوليات وكثير من الهموم تتربع على قلب كلا منهما كغيرهما من الخلق ،فتساءل رفيق خاطب نفسه: هل سأبقى في أتون دوامة المشاعر والأحلام ، أم علي مغادرة كل ما مضى وأعيش الحاضر كما هو ؟